الفصل الثاني
مع المتنبّي

بين الابنية اللغوية والمقومات الشخصانية

مع المتنبّي
بين الأبنية اللّغويّة والمقوّمات الشّخصانيّة

إذا كانت مقولة الحداثة قد أربكت الفكر الفلسفيّ المعاصر في تنقيبه عن وحدويّة العقل البشريّ منذ كان لنا عنه توثيق، وزحزحت قواعد الخلق الأدبيّ وأركان النّقد والقراءة حتّى غدا اللّحن صوابا والكسر جبرا واللاّنظام بناء فإنّ القضيّة أشدّ تعقّدًا عند العرب اليوم، بل هي أغزر طرافة وأكثر إخصابا تتنزّل لديهم متفاعلة مع اقتضاء آخر يقوم مقام البديل في المنهج العلمانيّ المعاصر، وهذا الاقتضاء مداره قضيّة التّراث من حيث هو يدعو العرب اليوم إلى «قراءته» ـ على حدّ عبارة المنهجيّة النّقديّة الرّاهنة ـ معنى ذلك أنّ العرب يواجهون تراثهم لا على أنّه ملك حضوريّ لديهم ولكن على أنّه ملك افتراضيّ يظلّ بالقوّة ما لم يستردّوه، واسترداده هو استعادة له، واستعادته حمله على المنظور المنهجيّ المتجدّد وحمل الرّؤى النّقديّة المعاصرة عليه حتّى لكأنّ الاستعادة عند العرب اليوم مقولة قائمة بنفسها تكاد لا تعرف وجودا عند سواهم، وإن رمت وقوفا على القواعد التّأسيسيّة في هذه المقولة فاقصر نظرك على غائيّتها

الّتي هي فكُّ إشكاليّة الصّراع بين المقلّدين والمجدّدين أو قل بين الكلاسيكيّ والحديث، فمقولة الاستعادة تنفي الدّيمومة إذ هي تكسر الزّمن: فقد نقرأ شاعرا معاصرا قراءة الجاحظ لبشّار، والمفضّل الضّبّيّ للمعلّقات، وقد نقرأ المتنبّي قراءة لا تنسبها إلى أحد من أعلام التّراث ولا أحد من أعلام الحاضر وإنّما تنتسب إلى منظور قد يكون نفسانيّا أو اجتماعيّا أو بنيويّا أو أسلوبيّا أو ما شاء له «القارىء» أن يكون.

فالقضيّـــة إذن مردُها: كيف نقرأ المتنبّي اليوم قراءة غير قراءة أبي العلاء له، بل غير قراءة طه حسين للمتنبّي والمعرّي معا.

إنّ السّبيـــل إلى هذا العطاء النّقديّ لا يمكن أن يستلهم إلاّ في خضمّ تمازج الاختصاصات، وهي مصادرة انبنت عليها المدارس النّقديّة المعاصرة جميعا ولعلّ من أوفق ما يعين عالم اللّسان على قراءة شعر المتنبّي أن يستلهم كلاًّ من علم النّفس الأدبيّ وعلم النّفس اللّغـويّ.

فأمّـا علم النّفس الأدبيّ، وهو ما يصطلح عليه بالنّقد النّفسيّ، وكذلك بالتّحليل النفسانيّ للنّصوص الأدبيّة، فمدرسة نقديّة استوحت مبادئها رأسا من مدرسة التّحليـــل النّفسيّ ونظريّات رائدها فرويد، ومعلوم أنّ فرويد قد عرّف الحضارة الإنسانيّة بأنّها حصيلة كبت يسلّطه المجتمع على الفرد فيروّض بموجبه نوازعه الفطريّة، وقد اهتدى فرويد إلى غزارة كثير من الظّواهر فاستغلّها في تفسير المعطيات الفرديّة والجماعيّة، ومن بين تلك الظّواهر عقدة أوديب، واللّيبيدو، وعالم الأحلام، وازدواج الإنسان في ذاته بين عالم الوعي وعالم اللاّوعي.

أمّـا ما انبثق عن هذه المدرسة من اتّجاه نقديّ في الأدب فقد أقرّ أنّ الخلق الفنّيّ كثيرا ما يكون استجابة لمنبّهات نفسيّة تتمخّض عنها حاجة مّا، أو يكون متنفّسا يفرّج فيه الأديب عن غرائز أو رغبات مكبوتة، لذلك كان للخلق الفنّيّ قيمة علاجيّة لحالات مرضيّة طالما أنّ العبقريّة تقوم أساسا على اختلال التّوازن النّفسيّ، فلمّا كان الخلق الأدبيّ صدى لعالم اللاّوعي إذ من محرّكاته تحرير المقيّد من حاجات الإنسان بإخراجه من حيّز اللاّوعي إلى حيّز الوعي، مثلما تطفو المكبوتات في الأحلام والصّرع والجنون والسّكر، فإنّ عمليّة النّقد كانت محاولة استجلاء ما يطفو على سطح الرّسالة الأدبيّة واستشفاف مضمـونـه.

هكـذا اعتبر النّصّ الأدبيّ وثيقة نفسيّة تقوم مقام لوحة الإسقاط في عيادة التّحليل النّفساني.

وأمّـا علم النّفس اللّغويّ فوليد حديث نسبيّا ظهر مصطلحه سنة ١٩٥٤، وتعاون على وضعه العالم النّفسانيّ أسقـود، وعالم اللّسان سابوك، وهذا الفنّ الجديد في المعرفة الإنسانيّة يدرس كيف تطفو مقاصد المتكلّم ونواياه على سطح الخطاب في شكل إشارات لسانيّة تنصهر في اللّغة الّتي تتواضع على أنماطها وسنن تأليفها مجموعة بشريّة معيّنة يحوّلها الرّابط اللّغويّ إلى مجموعة ثقافيّة، كما يدرس سبل توصّل المتقبّلين لذلك الخطاب إلى تأويل تلك الإشارات، فهذا العلم يعكف أساسا على عمليّتي التّركيب والتّفكيك وكيف تلابسان الحالة الّتي يكون عليها كلٌّ من الباثّ والمتقبّل، ثم اتّسع هذا العلم خلال السّتّينات

بعد أن غذّته مبادىء النّحو التّوليديّ فتحدّد عندئذ موضوعه بدراسة ظاهرة الكلام كيف تنشأ لدى الباثّ، وظاهرة الإدراك كيف تتحقّق لدى المتقبّل، وهكذا تميّز هذا العلم الوليد تماما عمّا كان يسمّى بعلم نفس الكلام (أو سيكولوجيّة اللغة).

• • •

فالنّاظر اللّسانيّ المتشبّع بالمضامين الشّعريّة عند أبي الطّيب المتنبّي إذا ما احتكم إلى كلا المعينين النّقديّين استطاع أن يصادر على تقريرين اثنين، أوّلهما: أنّ شخصيّة المتنبّي في أدبه شخصيّة اصطداميّة يتجاذبها قطبان متباينان إيجابا وسلبا، وثانيهما أنّ صراع القوى الشّخصانيّة عند الشّاعر قد تفجّر في علاقات تقابليّة على الصّعيد اللّغوي ممّا أدّى إلى بروز شبكة من الرّوابط الثّنائيّة دلاليّا ونغميّا في نفس الوقت.

ومدار ما نصادر عليه أنّ المتنبّي قد تعلّق به طموح في الحياة مشطٌّ وهو ما غدا إحدى مسلّمات النّقّاد، قديمهم وحديثهم، غير أنّ هذا الطّموح قد تجذّر حتّى تحوّل مركّب علوّ، وحقيقة المركّب في علم النّفس أنّه ظاهرة مدفونة في اللاّوعي، معنى ذلك أنّ المتلبّس بها لا يحسّ بها إحساس الآخرين، أي إنّه لا يعي شذوذها أو خروجها عن الأنماط القائمة، فإذا أحسّ بها، وهي في نفسه، إحساس النّاس بها فيه تحرّرت من اللاّوعي وطفت على سطح الشّعور. والمتنبّي طموح واع يطموحه وعيا لا يزيده إلاّ تعلّقا به وإن شذّ أو شطّ، حتّى إنّه يتقمّص التّحدّي دفاعا عن علوّ المطامح فيستحيل اللّفظ لديه تمرّدا على الحقيقة القائمة، وهذا هو الذي ينزّل الطّموح عند المتنبّي منزل المركّب النّفسانيّ.

أمّـا عن شرح ما يعزى إليه تولّد هذا المركب فإنّنا إن لم نذهب مذهب من يقول بالعنصر الوارثيّ أو بالمقوّمات التّكوينيّة فإنّنا قد نجد بعض الأسباب في الحرمان الّذي عاشه المتنبّي منذ صغره سواء من حيث الحاجة المادّية أومن حيث فقدان العطف الأبـويّ.

فهذا الاختمار النّفسـانيّ قد تجسّم في ما اتّصف به الشّاعر من حساسيّة مرهفة الحدّ هي إلى المرض أقرب منها إلى الحال السّويّة، وبتلك الحساسيّة طبع أدبه فكان في جلّه تعارضا بين مرمى الطّموح وسبيل تحقيقه، بين الغاية والوسيلة، بل كان صرخات من التّفارق النّفسيّ المتفجّر.

* * *

فإذا عدنا إلى مصادرتنا في البحث وهي ثنائية التّعارض عند المتنبّي رأيناها تجسّمت في روابطه الحياتيّة الخارجيّة إذ تألّف زوجان متعاقبان هما :

١ — المتنبّـي ـ سيف الدّولـة،

٢ — المتنبّـي ـ كافـور.

وفـي الزّوج الثّاني تبلورت التّقابلات الذّاتيّة الانطوائيّة متفاعلة مع التّعارض الخارجيّ ممّا ولّد ثنائيّة تصادميّة أنطقت الشّاعر بصريح التّناقضات ومرير الاعترافات، وكلّ ذلك من موقع المتأزّم بين مرمى الطّموح والسّبيل إليـه.

وأوّل ما يطفو على سطح البنية الشّعريّة في هذا المقام شعور الامتعاض من الذّات إلى حدّ التّقزّز، وهو تعبير عن موقف من

النَّقد الذَّاتيّ تحطَّمت فيه ملامح تحقيق المرامي الغائيّة فانكسرت أمواج الأمل على جدران الوسيلة ، وفي هذا النَّفس الشِّعريّ مصارحة بركوب مطيّة الأسباب على قذارتها سعيا للمطمح المنشود :

أريـــكَ الرِّضَى لو أخْفَتِ النَّفْسُ خافيَـــا
ومَـــا أنَـــا عن نفسِـــي ولا عنك راضِيَـــا

فليـــس ذلك إذن إلا محاكمة للنَّفس من حيث هي محاكمة الأسباب المنشودة بها الغايات ، وهذا الموقف النَّقديّ يتلوّن صورا وأشكالا حتَّى يقارب تهمة النَّفس بانقطاع الحاسّة الشُّعوريّة عنهـــا :

أصخرةٌ أنا مالي لا تُحَرّكنِـــي هاذي المُدَامُ ولا هاذي الأغاريدُ

وهـــي حال لولا انفجارة مطلع البيت بما يشبه الثَّلب والإستفزاز لظننّاها تجلُّد الرّواقيّين أو انصهار الصّوفيّين ، غير أنَّ قمّة انفجار التَّمزّق تدرك سناها عند شعور المتنبّي بالتَّشيئة ، وذلك عندما أحسّ بأنَّ كافورا إنّما يتّخذه متاعا يقضي منه وبه أوطارا ، فلا يعدو الشَّاعر جسرا يمتطى بشعره إلى مرامي الشُّهرة والصّيت ، ويقبر طموحه قبرا .

عنـــد هذا الحدِّ من الإحساس ينفجر وعي الشَّاعر أمام انقلاب سلّم القيم فيصرخ بنفسه بل بالقدر والحظّ :

جوعانُ يَأكل من زادِي ويُمسكنـــــــي
لكـــيْ يُقال : عظيمُ القدرِ مَقصـــودُ
وَيُلْمِمُهَـــا خُطَّـــةٌ ويلمّ قابِلِهَـــــــــا
لِمِثْلِهَا خُلِقَ المَهْرِيَّةُ القُـــــــــودُ

أمّـا الزّوج الآخر وهو «المتنبّي ـ سيف الدولة» فإنه يشكّل ثنائيًا تكامليًا رغم أشباح التّقطّع أو التّنافر، وشعر أبي الطّيّب يصوغ لنا عناصر المقارنة المتعادلة والمتراجحة بينه وبين سيف الدّولة الحمدانيّ على الأنماط الثّلاثة التّاليـة :

١ ـ معـادلة هي : سيف الدّولة = المتنبّي.

٢ ـ متراجحة أولى هي : سيف الدّولة > المتنبّي.

٣ ـ متراجعة ثانية هي : المتنبّي > سيف الدّولة.

فأمّـا المعادلة فتخصّ البعد السّوسيولوجيّ الشّامل رأسا للبعد الذّاتيّ في مقوّمات الشّخصيّة عامّة وجماع الخصائص الذّاتيّة في الفرد العربيّ ضمن أنماط المجتمع المستوعب للفرد سواء أكان مجتمعا قبليًا بدائيًا أو حضريًا منتظما في البناء السّياسيّ إنّما هي الفتوّة كما خلّفها المتصوّر العربيّ الأوّل في جاهليّته التّاريخيّة، وأولى ركائزها النّسب، وهو معين وراثيّ تستوحى منه عناصر الشّرف والعرض والمجد الضّارب في بعد الزّمن الرّاحل المتجدّد بتجدّد الحاجة إليه، وعنصر النّسب حاضر في طرفي المعادلة المتكافئة : «المتنبّي وسيف الدّولة»

أ ـ إذ يتعرّض إلى جـدوده :

وَبِهِمْ فَخْرُ كلّ مَن نطق الضّـــــــادَ
وعـونُ الجانِي وغـوثُ الطّـريـــدِ

ب ـ ولكنْ تَفُوقُ النّاسَ رأيًا وحكمـــةً
كمـا فُقتَهـم حالا ونفســا ومَحْتِـدَا

والدّعـامة الثّانية في المجد الاجتماعيّ يجسّمها الكرم :

وهو في الحضارة العربيّة نقطة تقاطع المادّة بالأخلاق، معنى ذلك أنه رمز نكران المادّة عند حضورها فهو إثبات لها ونفي، وفي ذلك سرّ ارتقاء الكرم إلى منزلة القيمة المطلقة قام عليها سلّم القيم في الجاهليّة وأقرّها الإسلام ضمن الشّعائر القدسيّة المحرّرة للفرد، والمطهّرة للإثم، والمكفّرة من الذّنوب، ولهذه الأسباب استقطب مفهوم الكرم مجموعة من المتصوّرات الملابسة إيّاه هي كلّها في رصيد القيم الفرديّة والجماعيّة كالإحسان، والتّضحية والفدى، والإيثار، والصّدقة، والهبة، والعطاء، والسّخاء، والجود ...

وبديهيّ أن يبرز الكرم معلما من معالم الوصف في شعر أبي الطّيّب سواء في طرف المعادلة الأيمن أو الأيسر، أي سواء أكان بروزه فخرا أو مدحا :

أ ـ وكم من جبالٍ جُبْتُ تَشهد أنّني
الجبالُ وبحرٍ شاهدٍ أنّني البَحْرُ

ب ـ وتُحيِي له المالَ الصّوارمُ والقَنَا
ويَقتلُ ما تُحيِي التّبسّمُ والجدَا

أمّا الأسّ الثّالث من أسس الفتوّة فيتمثّل في العزّة، وهو مفهوم ضبابيّ أحيانا، ولكنّه يتفكّكُ إلى عنصري القوّة والإرادة، فعزّة القوّة هي البطش، لذلك لابست مفهوم الفروسيّة فكانت من توابع الملاحم والبطولات، والعزّة المتأتّية بالإرادة مدارها الحلم عند القدرة على البطش، وهو عنصر مؤتلف من متباينين : العزم على الثّأر والكفّ عنه في نفس اللّحظة.

فمن عزّة البطش :

أ ـ أنا تِرْبُ النَّدَى وربُّ القـوافـــي
وسِمـامُ العِدَى وغيظُ الحســـــودِ

ب ـ بَنَاها فأعْلَى والقَنَا يقرع القَنَـــا
ومـوجُ المنـايا حَوْلَهَا مُتـلاطـــمُ

ومـن عزّة الحلـم :

أ ـ وَمَا الجمعُ بين الماء والنَّارِ في يدي
بأصعبَ مِن أن أجمعَ الجِدَّ والفَهْمَـا

ب ـ رأيتُكَ محضَ الحلم في محضِ قدرةٍ
ولو شئتَ كان الحِلْمُ منك المُهَنَّـدا

هكـذا يكتمل المجد الاجتماعيّ لكلا الطّرفين في ملحمة الوصف الذّاتيّ الأخلاقيّ ممّا يبوّئهما مرتبة الكمال المنشود، والكمال بهذا التّقدير صريح الاعتبار في شعر المتنبّي فهو لنفسه :

ـ سَيعلَمُ الجمْعُ ممّن ضَمّ مجلسُنـــا
بأنّني خيـرُ من تَسعى به قَـــدَمُ

ـ وهـو أيضا لسيف الدّولـة :

فَـذَا اليومُ في الأيّامِ مثلك في الـوَرَى
كما كنتَ فيهِمْ أوحدًا كان أوْحَـــدَا .

فالتّفرّد لهـذا ولذاك مشحون بالتّفضيل المطلق ممّا لا يبقى احتمالا لغير التّطابق في الكمال .

فهذا إذن رصيـد المعادلة المتكافئـة :

المجد الإجتماعي	المتنبّـي	سيف الدولة
النسـب	+	+
الكـرم	+	+
العزة البطـش	+	+
العزة الحلـم	+	+
الكمـال	+	+

أمّا إذا أتينا المتراجحة الأولى التي أسلفنا فنجدها :

سيف الدولـة > المتنبّـي

وعنصـر التّراجح يتجسّم في المجد السّياسيّ إذ أوتي سيف الدّولة السّلطان، وظلّ المتنبّي يسعى إليه سعي الضمآن خلف السّراب بل سعي سيزيف بصخره إلى تلّ الجبل لا يكاد يدركه حتّى يقع به الصّخر إلى السّفح فيعاوده.

لـذلك ظلّ مثل هذا البيـت :

تَظَلُّ ملوكُ الأرض خاشعةً لـــــــــه
تُفَـارِقُـه هَلـكَـى وتلقَـاهُ سُجَّـــدَا

دون بـديل، توفّر لأحد طرفي الموازنة وافتقر إليه الطّرف الآخر، معنى ذلك أنّ بيتا هو جنيس الّذي أسلفنا قد ظلّ دفين اللاّوعي، مقبورا في القوّة، لم تنقدح له شرارة الخروج إلى الفعل، ولو كان له أن يكون لكـان :

تظلُّ ملوكُ الأرض خـاشعـة لنـــــا
تفـارقُنـا هلـكـى وتلقـانَ سُجّـــدا

فسيف الدّولة – في هذا التّركيب المزدوج الثّنائيّ – يقوم للمتنبّي مقام المرآة يرى فيها نفسه كما كانت وكما كان يريد لها أن تكون من حيث تعكس المثل الأعلى لهـا.

فحصيلة المتراجحة سلب في العنصر «أ» وإيجاب في العنصر «ب».

المجد السياسيّ	المتنبّي	سيف الدولة
السلطان	–	+
التراجح	– <	+

أمّا المتراجحة الثّانية فتعكس آية ما سبق إذ تقوم نقيضة للمتراجحة الأولى وفيها أنّ :

المتنبّي > سيف الدّولة.

ومدار هذا الرّجحان أنّ المتنبّي لئن لم ينقد زمام السّلطة السّياسيّة إلى مشيئته فلقد تربّع على إيوان الشّعر فكان له به المجد الأدبيّ، وللشّعر في الحضارة العربيّة شأن لولا الطّفرة السّياسيّة عند انفجار الامبراطوريّة الإسلاميّة لما رضي به الفرد العربيّ بديلا. لهذا كلّه قام الشّعر في موازنة المتنبّي مقام متنفّس التّعويض، فهو الملاذ الّذي يطمس به الشّاعر ثغرة النّقص عند خيبة الأمل، وبديهيّ ان ينفرد المتنبّي بسلطان الشّعر عند مواجهة طرف التّركيب الثّنائي:

أنَا الّذي نَظَرَ الأعمى إلى أدبِـــي
وأسْمَعَـت كلمـاتِي مَنْ به صَمَمُ

وهـو عين الإعجاز، لا الأدبيّ فحسب استنادا إلى تركيب اللّفظ بالسّحر الحلال، ولكنّه الإعجاز في المضمون إذ بشعره «يبـرىء الأعمى والأصمّ».

وهـذا البيت شأنه شأن البيت في المتراجحة الأولى يظلّ دون بديل، تسنّى لأحد الطّرفين ولم يتسنّ للآخر، أي إن البيت البديل كان يمكن أن يكون عن سيف الدّولـة :

هُوَ الَّذي نَظَرَ الأعمى إلى أدَبِـــهْ
وأسْمعـت كلماتُـه مَن به صَمَـمُ

فالشّعـر ـ وبه قوام المتنبّي ـ جسر التّوافق في مقابلـة الرّجحان ينقض السّلب إذ يثبت للطّرف المقابل سلبا مـوازيا.

فعصارة المتـراجحة الثّانية سلب في «ب» وإيجاب في «أ» بحيث يكـون :

المجـد الأدبـي	المتنبّـي		سيف الدّولة
الشعـر	+		—
التراجع	+	>	—

هكـذا يتبيّن لنا كيف أنّ الزوج «المتنبّي ـ سيف الدّولة» هو زوج يشكّل ثنائيّا تكامليّا بما يتعادل بينهما من التّكافؤ والرّجحان، وليس إلاّ شعر أبي الطّيّب نفسه بمضمونه الدّلاليّ ومنطوقه التنظيميّ يهدينا إلى هذا التّكامل طالما أنّ كليهما يحمل في جدوله بصمة السّلب، فإذا تعاملت تعامل «السّطح» في علامة الضّرب مع بصمة السّلب في الآخر أخصبت إيجابا مطلقـا :

$$(+) = (-) \times (-)$$

بهـذا المنظور ومن هذا الموقع تتجذّر شرعيّة معاملة المتنبّي لسيف الدّولة معاملة التعلّق والاتّحاد بما لا يتنافى ومنطق العشق المجرّد، ولم يتجاف الشّاعر لحظة عن هذا البوح رغم أنّه كشف للباطن، وفي الكشف إثمار و«خيانة»:

إذا أردتُ كُمَيْتَ اللّوْنِ صافيـــةً
وجـدتُهـا وحبيـبُ القلبِ مفقودُ
مالِي أكَتِّمُ حبّاً قد بَرَى جســـدِي
وتَدّعِي حبّ سيفِ الدّولةِ الأُمَـمُ

هذا العشـق الصّوفيّ إن هو إلاّ اتّحاد التكامل إلى الانصهار كمـا لـو:

	المتنبّي	سيف الدولة
البعد الإجتماعي	+	+
البُعد السياسي	−	+
البُعد الأدبيّ	+	−
الحصيلة الفرديّة	−	−
الحصيلة الثنائيّة	+	

عـلى هذا البناء نتبيّن كيف أنّ سلسلة علامات الإيجاب سواء تراكمت في علامة الجمع (+) أو تفاعلت في علامة الضّرب (×) تظلّ إيجابا، بينما تتجمّع بصمات السّلب فتنتج بالجمع سلبا، ثم تتفاعل في علامة الضّرب حصيلة السّلب

وحصيلة الإيجاب فلا ينتج إلا سلب، وتلك مأساة المتنبّي أنه يحمل النّقص الّذي قدّر لآدم وبنيه، فجهاده جهاد الكائن البشريّ يرفض وضعه فينشد صفة الآلهة كمالا وإعجازا، ولقد تحدّدت رؤى الشّاعر في سعيه للكمال المنشود باسترجاع ما كان يرى نفسه حقيقا به ألا وهو المجد السّياسيّ. فمردّ إلهام المفارقة عند المتنبّي كما أسلفنا جموح عنان الطّموح إلى حدّ غدا معه مركّبا من العلوّ يرفض به صاحبه الإقرار بالواقع والتّسليم بالمفروض، فهو إلهام شعريّ متمرّد على الواقع لا يعرف الإذعان لذلك كان قطب الرّحى فيه الرّفض بكلّ إيحاءاته، وقمّة الرّفض أن يتألّه الإنسان وبه تقزّز من آدميّته :

ـ وإنّي لَمِنْ قوم كأنّ نفوسَهُمْ
بها أنَفٌ أن تَسْكُنَ اللّحْمَ والعَظْمَا

ـ إنْ أكن مُعجَبًا فعُجْبُ عجيبٍ
لم يَجِدْ فوقَ نفسِه مِن مَزيدِ

* * *

إنّ ما انتهينا إليه إلى حدّ الآن من تركيب ثنائيّ طاغ على المضامين الشّعريّة في إلهامها وصورها الفنّيّة قد ولّد نزعة إلى التّركيب الثّنائيّ على المستوى اللّغويّ سواء في حقل الدّلالات، الفرديّة منها والتّجميعيّة، أو في حقل النّغمات الإيقاعيّة.

وأوّل مظهر من مظاهر التّركيب الثّنائيّ ما يمكن أن نصطلح عليه بالتّقابل المزدوج، وهو أن يحمل البيت في بعضه أو كلّه عناصر تزدوج ثنائيًا سواء ازدواج تضادّ أو

ازدواج تطابق، وسواء كان ذلك دلاليًا أو إيجابيًا، ففي البيت التّـــالي :

جزاءُ كلٌّ قريبٍ منكُمُ مَلَـــــلٌ
وحـظُّ كلِّ محـبٍّ منكُمُ ضغـنُ

إذا مـا فكّكناه حصلنا على خمسة أزواج، اثنان منها غير تمييـزيّيـن :

كـلّ / كلّ،
منكم / منكم،

وثلاثة منهـا تمييزيّة بالتّطابق، وتطابقها ترادف يجعلها من مجـال واحـد :

جـزاء / حـظّ
قـريب / محـبّ
ملـل / ضغـن

بحيـث يكون لدينا : تعانق سداسيّ ينحلُّ إلى ثلاثة مثان تترامى أطرافها فتربطها نقطة محوريّة جامعة، فإذا أقمت خطًّا عموديًا على مفصل المصراعين وقرنت كلّ زوج إلى زوجه حصلت على الشّكل البيانيّ المميّـز .

أمّـا في قـولـه :

هو البَحْرُ غُصْ فيه إذا كان ساكنًـــا
عـلى الدّرِّ واحذَرْهُ إذا كان مُـزْبِـــدَا

فـإنّ التّقابـل المزدوج غير تامّ ولكنه أيضا غير متعادل

الطّرفين إذ يحصل لنا من مجموع البيت زوجان تمييزيّان هما :

غـص فيه ≠ واحـذره
سـاكنـا ≠ مـزبـدا

ويحصـل لنا زوج غير تمييزيّ هـو :

إذا كـان / إذا كـان

ويبقى أخيـرا عنصران غير مندرجين في العلاقات الثّنائيّة وهمـا :

- هـو البحـر ،
- عـلى الـدّرّ ،

بحيث يحصل لنا تعاظل رباعيّ بين الصّدر والعجـز ، يطرح منه ما ازدوج بلا تمييز ، ويبقى اثنان من المزدوجات إذا ربطنا بين أطرافهما حصلنا على مناظرة متناصفة بين الصّدر والعجـز .

غيـر أنّ محور التّقابل والانسطار منزاح عن نقطة الانتصاف ممّا يخلق إيقاعا يجعل البيت إلى التّدوير أقرب ، ويطيل في نفس البثّ الشّعريّ كأنّما البيت كتلة متراصّـة .

وعـلى نفس المنوال تقريبا يرد البيت :

وذاك أنّ الفحول البيض عاجزة عن الجميل فكيف الخصية السّود

حيث ينـزاح مدار التّقابل إلى مطلع العجز فيربط تقابليّا الـزّوجيـن :

الفحـول ≠ الخصيـة

البيـــض ≠ السّـــود

وتبقـــى بقيّة عناصر البيت خادمة للدّلالة المشتركة دون أن تتفرقع إلى علاقات ثنائيّـــة .

وقـــد يتحوّل مدار التقابل إلى منتصف العجز تماما فلا يكون الصّدر إلاّ مجالا افتتاحيّا لإبراز العلاقة التّقابليّة وذلك كمـــا في :

صار الخصيّ إمامَ الآبِقين بهـــــا
فالحـــرُّ مُستعبَـــدٌ والعبـــد معبـــودُ

وتتكاثف في هذا العجز روابط العناصر تقابلا وتطابقا على النّحـــو التّـــالي :

أ ـ الحـــرّ ≠ العبـــد
مستعبـــد ≠ معبـــود

ب ـ الحـــرّ // العبـــد (في البنية اللّغوية فكلاهما صفة مشبهة أو في حكمهـــا).
مستعبـــد // معبـــود (كذلك، إذ كلاهما اسم مفعول)

ج ـ الحـــرّ ∈ معبـــود
مستعبـــد ∈ عبـــــد

فيكون تظافر العبارتين على نمط التّداخل المقلوب : بعض الأوّل في بعض الثّاني، وآخر الثّاني في طرف الأوّل، وبين العبارتين محور وسط يوزّع التّناظر فضلا عن تقابل الشّحنات الدّلاليّة وتكاملها إيجابا وسلبا كما سيأتي.

أمـا المظهر الثاني من مظاهر التّركيب الثّنائيّ فيتمثّل في ظاهرة التّوازي سواء أكان ذلك من توازي الكتل الدّلاليّة والمجموعات اللّغويّة أم من توازي العناصر اللّغويّة الفرديّة.

وبمـوجب هذه الظّاهرة يرد البيت الشّعريّ على أحد نمطين، إمّا صدره مواز لعجزه من حيث إنّهما يحملان دلالتين متوافقتين أو متكاملتين، وإمّا يرد البيت متجمّعة فيه عناصر متراصفة متلاحقة يردّد بعضها الآخر أو ينوّعه خدمة لحقل دلاليّ معيّن مبسوط.

فمـن النّمط الأوّل قـوله :

وَلاَ أُقِيمُ على مالٍ أذَلُّ بـــــــه
ولا أَلَـذُّ بمـا عِـرْضِي بـه دَرِنُ

حيث تتوازى العنـاصر :

أقيـم // ألـذُّ (دلاليّـا)
ألـذُّ // أذلُّ (نغميّـا)
أذلُّ // درن (إيحـائيّـا)

ويتـوازى بالمغايرة العنصران :

مـال // عـرض

ويتـوازى أخيـرا بالتّطابـق :

ولا ... بـه // ولا ..... بـه

ومن نفـس النّمط أيضا قولـه :

على قدرِ أهل العزم تأتِي العزائـــــمُ
وتأتِي على قدرِ الكِرام المكَـــــارِمُ

فكــلا المصراعين يداخل الآخر في الدّلالة ويلابسه في البنية الشّعريّة والتّركيب اللّغويّ بحيث يتوازى بالتّطابق :

على قــدر // على قــدر
تــأتي // تــأتــي

ويتــوازى بالبناء المقطعيّ الاشتقاقيّ وهو ما يفضي إلى تطابق عروضيّ :

العــزائم // المكــارم

كمــا يتوازيان بالدّلالة الحافّة إذ العزيمة مكرمة بوجه من الــوجوه.

ويتوازى باقتضاء السّياق كلٌّ مــن :

أهــل العــزم // الكــرام

غيــر أن الشّاعر قد فرقع التّوازي الّذي قام البيت عليه بيــن :

تــأتــي // تــأتــي.
عــلى قــدر // على قــدر

بكســر في التّنظيم والمدلول، فأمّا الّذي في التّنظيم فيخصّ :

العــزائم / المــكارم.

وأمّــا الّذي في المدلول فيخصّ كما أسلفنا :

أهـل العـزم / الكـرام.

يـدل :

أهـل العـزم // أهل الكرم.

العازمـون // الكـرام.

وأمّـا الثّـ ـل الثّاني في موضوع التّوازي فيخصّ تجميع العناصر اللّغويّة، والملاحظ أنّ هذا التّجميع يستقطبه عنصر مولّد فاعل متحكّم في بنية البيت عموما، والطّريف في الإلهام الشّعري أنّ العنصر المستقطب يتجوّل بين طرفي البيت سعيا إلى الموقع الحسّاس المثير، فهو مرّة في طليعة الصّدر :

بِمَ التّعلُّلُ لا أهلٌ ولا وطَـــــنٌ
ولا نـديمٌ ولا كـأس ولا سَكَـنُ

بحيث إنّ العناصـر المتلاحقة لا رابط بينها سوى أنها تجيب عن التّساؤل المطلعيّ المحدّد لبنية البيت «بم التّعلّل»، فهو لذلك يستقطبها فرادى كما لو كان العنصر المولّد مركز دائرة شعاعيّة شمسيّة، ووقع هذه البنية أنها تجعل النّفس الشّعريّ شديد التّصاعد بطيء التّنازل إذ يبلغ البيت نبرته النّغميّة منذ مطلعه ثم يتدرّج انحدارا إلى أن يبلغ سفح النّبرة مع خاتمتـه.

وقد يرد العنصر المولّد المستقطب في مؤخّرة البيت مع رجع ختـاميّ طفيفه كما في :

أمَيْنَا وَإخلافًا وغدرًا وخِسّـــــــةً
وجُبْنًا أشخصًا لُحْتَ لي أم مَخَازِيَـا

فـإذا أحللنا العنصر المولّد مركز دائرة الاستقطاب وجـدنا :

أنّ البنيـة اللغويّة من شأنها أن تطيل نفس الصعود في البثّ الشّعريّ فلا يبلغ مداه إلاّ والبيت يكاد ينتهي إلى تمامه فيقع تنازل فجئيّ هو بمثابة السّقوط الحرّ فتقع عندئذ النّبرة الشّعريّة على مؤخّرة البيـت.

وقـد يرد العنصر المولّد متوسّطا بنية البيت فيحدث إيقاعا معتدلا متكافىء الطّرفين يكون فيه الاستقطاب بمثابة محور الانتصاف كمـا في :

الخيلُ واللّيلُ والبيداءُ تَعرفنـــــي
والسّيفُ والرّمحُ والقِرطاسُ والقَلَمُ

وفي هـذا البناء تتنزّل دائرة الاستقطاب منزلة المركز المنظّم لانشطـار التّركيب الشّعريّ.

وبـديهيّ أن ينبني الإيقاع النّغميّ على التّوازن المتكافىء بحيث تتبوّأ النّبرة منتصف البناء فيتكوّن مثلّث متساوي الضّلعين، ويكون الصّعود متدرّجا تدرّ ج التّنازل.

أمّا المظهر الثّالث من مظاهر التّركيب الثّنائيّ فيتمثّل في ظاهرة تفاعل العناصر الجزئيّة إيجابا وسلبا ، وصورة ذلك أنّ البيت الشّعريّ عند المتنبّي كثيرا ما يشحن متناقضات فيشتدّ ضغطها بما يولّد شحنة نهائيّة هي إمّا إقرار لمبسوط أو نقض لمفروض.

على أنّ مبدأ ممارسة تعامل الشّحنات هو من الدقة بحيث يقتضي اعتبار المجال الدّلاليّ : الصّريح منه والضّمنيّ، كما يقتضي الاحتكام إلى السّياق بما يفضي إليه من دلالات حافّة.

ومع ذلك فقد تتلابس الطّاقة الإيجابيّة أو السّلبيّة بالطّاقة الحياديّة الّتي هي درجة الصّفر.

فلو عدنا إلى بيت أسلفناه في عنصر التّقابل المزدوج :

صارَ الخَصِيُّ إمام الآبِقِين بها
فالحرُّ مُستعبَد والعبد معبودُ

لاحظنا أنّ التّركيب الثّنائيّ منتظم إيجابا وسلبا بحيث :

الخصيّ ← −
إمام ← +

الحرّ ← +
مستعبد ← −

العبد ← −
معبود ← +

فإذا اعتبرنا أنّ كل زوج من هذه الأزواج الثلاثة هو في تفاعل داخليّ بحيث يرضخ إلى علامة الضّرب (×) كانت حصيلة كلّ زوج سلبا متأتّيا من ضرب موجب في سالب بحيث يكون :

أ { الخصيّ ← − ; إمام ← + } ← −

ب { الحرّ ← + ; مستعبد ← − } ← −

فإن نحن استطردنا متتبّعين حصيلة البيت رجعنا إلى مبدإ التّراصف من حيث إن البيت كتل دلاليّة متجمّعة وطبّقنا قاعدة الضّمّ فتكون حصيلة الجمع بين العناصر السّلبيّة الثلاثة سلبا نهائيّا ، وهو محطُّ رحال البيت مضمونا ومنطوقا :

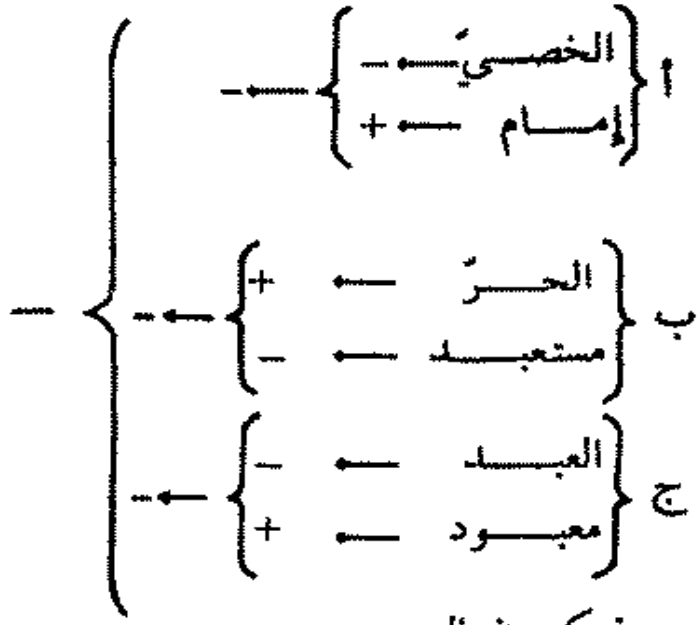

فيكون البيت :

صار الخصيّ إمام الآبقين بها فالحرّ مستعبد والعبد معبود

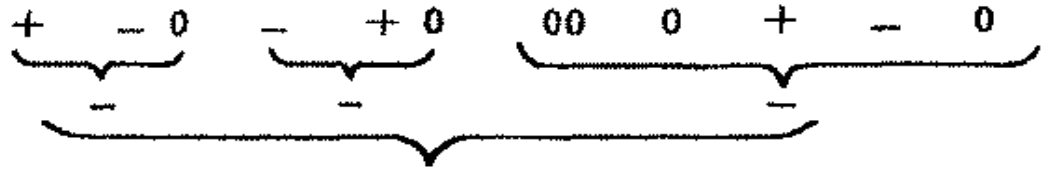

فالحصيلة السّلبيّة (ـ) عقلنة رياضيّة لمفهوم الهجاء في المتصوّر الأدبيّ وقد ورد البيت هجاء، مثلما أنّ الحصيلة الإيجابيّة قد تعقلن مفهوم الفخر أو المدح ففي البيت :

ولا أقيمُ على مالٍ أذَلُّ بـــه ولا ألَذُّ بما عِرْضِي به دَرِن

نقف عـلى الشّحنات التّاليـة :

لا ⇐ – من حيث هي نفسي،
أقيم ⇐ + إذ هو فعل للإبقاء والـوجود،
مال ⇐ + لأنه يتنزّل سوسيولوجيًا منزلة الإيجاب،
أذلّ ⇐ – والشّحنة السّلبيّة صريحة على سلّم القيم المعماريّة،
لا ⇐ – نفـــسي،
ألـذّ ⇐ + والإيجاب إيحائيّ حسب منبع اللّذّة،
عرضي ⇐ +/0 وهو عنصر حياديّ مجرّدا، وإيجابيّ في السّياق، ولا يغيّر التّبادل من نتيجة التّعامل.
درن ⇐ – والسّلب في هذا العنصر أخلاقيّ اجتماعيّ.

فيكـون الصّدر ذا حصيلة إيجابيّة بإرضاخ العلامات إلى مبدإ الضّـرب (×).

ولا أقيـم على مـال أذلُّ بـــــه

– 0 0 0/+ 0 0 + –

+

كمـا يكون العجز إيجابا في حصيلته بنفس التعامل:

ولا ألـذُّ بما عـرضي بـــه درن

– 0 0 0/+ 0 0 + –

+

ويتعامل الصّـدر والعجـز في تجمّع إضافي فينتج الإيجاب :

ولا أقيم على مال أذلُّ بـــــه ولا ألــذُّ بمـا عرضي به درن

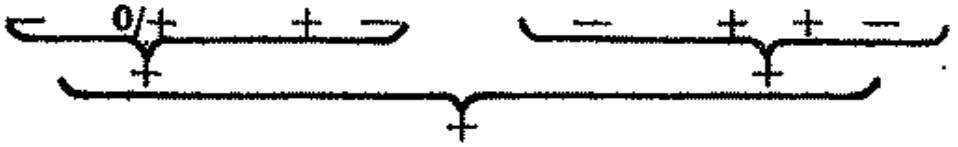

وقد تتشعّب العناصر الضّاغطة في البيت إيجابا وسلبا لتحدث الصّدمة المتغايرة كما في الشّكوى وهي «رثاء» للذّات الحاضرة :

قليلٌ عائـدي سَقِـمٌ فـــــؤادِي
كثيرٌ حـاسدي صَعْبٌ مـرامـــي

فلـــدينا إذن :

قليل ⇐ – حسب معيار الكـمّ،
عائدي ⇐ + إذ هـو منشود المـريض،
سقـم ⇐ – وهو رمز المـرض موضوع الشّكـوى،
فـؤادي ⇐ 0
كثير ⇐ +
حاسدي ⇐ –
صعب ⇐ + إذ كرّس اللفظ على سلّم التقييم للدّلالة على الرّفعة وعلوّ الشّأن، على أنّ اللّفظ نفسه قد يمحّضه سياق آخر إلى السّلب كما لو قلنا «مسلك صعب» في معناه المادّيّ كالطّريق في الجبل.

مرامي ⇐ + وهو غائيّة الطّموح المنشـود

عنـدئذ نتبيّن كيف تحدث الكتل الثلاث الأولى شحنات سلبيّة بالتّعامل حسب علامة الضّرب (×)

قليـــلٌ عـــائدي سَقِمٌ فُؤَادي كثيرٌ حاسدي

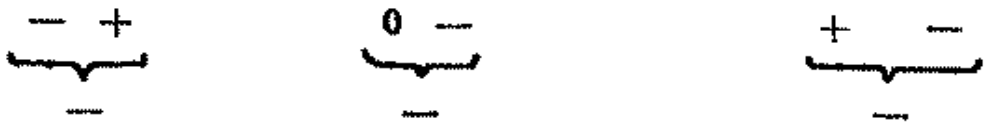

ثـــم ندرك كيف تتجمّع الكتل الثّلاث لتفرز سلبا حسب تكتّل الإضافة (+) وندرك من ناحية أخرى كيف تنتج الكتلة الرّابعة إيجـــابا :

صعـــب مـــرامي

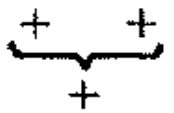

فإذا تضاربت الكتل الثّلاث الأُولى مع الكتلة الرّابعة حصلَ السّلب، وهو مدار الشّكوى ورثاء النّفـــس :

قليـــل عائدي سقم فؤادي كثير حاسدي صعب مرامي

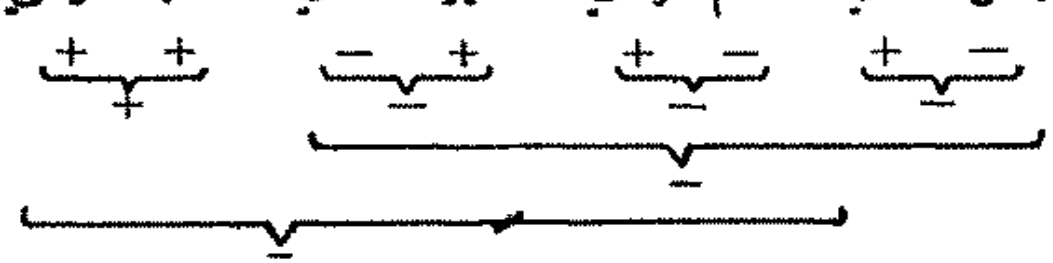

* * *

تـــلك نمـــاذج من التّركيب الثّنائيّ في بناء شعر المتنبّي ولّدها ــ حسب ما صادرنا عليه ــ التّركيب التّقابليّ في المضامين المجسّدة خارج الشّعر والمضمّنة إيّاه، وما سقنا ما سقناه إلا مقاربة، وحدّ المقاربة أن يعتمد منهج علميّ لا يشكّ في صلاحه ذاتيًا ولكن لا يجزم بخصب نتائجه سلفا عند تطبيقه في الظّرف

المعيّن للممارسة، على أنّنا قد نتجرّأ على تقرير أنّ التّركيبات البنائيّة في شعر المتنبّي لا يمكن أن يحكم سرّ شعريّتها إلا من موقع إن لم يكن لسانيًا محضا، فلا أقلّ من أن يحتكم إلى المنظور اللّغويّ بعناصره الموضوعيّة وتشكيلاته العقلانيّة.

كذا يتسنّى استقراء الخصائص الفنيّة أو ما يصطلح عليه جزافا بالأسلوب الشّعريّ، وكذا يمكن استعراض عيّنات من المحاكاة النغميّة كما في:

كَفَى بكَ داءً أنْ ترى الموتَ شافِيَا
وَحَسْبُ المنايا أن يَكُنَّ أمانيَا

أو في:

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا
وموج المنايا حولها متلاطم

وكذلك استعراض ظاهرة التّقفية الدّاخليّة أو ما اصطلح عليه البلاغيّون بالتّرصيع كما في:

أ) في تَاجِهِ قَمَرٌ في ثوبه بَشَرٌ
في دِرْعِه أسَدٌ تَدْمَى أظافرُهْ

ب) قليل عائدي سقم فؤادي
كثير حاسدي صعب مرامي

ج) أنا تِرْبُ النّدَى وربّ القوافي
وسِهام العِدَى وغيظ الحسود

د) بضـــربٍ أتى الهاماتِ والنّصرُ غائبٌ
وصـــار إلى اللّبّاتِ والنّصر قـــــادِ

• • •